موقف العراقيين
من النظام الفيدرالي

مسح تأريخي فكري عام

كمال مظهر
كلية الاداب- جامعة بغداد

مطبوعات خندان
للبث والنشر

قدم المؤرخ الكردي الكبير الدكتور كمـال مظهـر احمـد هذة الورقة ضمن ندوة الفيدرالية وتطبيقها في العـراق الـذي عقد في مدينة سيراكوزا الايطالية فى اواخـر تشـرين الثـانى فى عام ٢٠٠٥ وتنشر خندان للبث والنشر هذه الورقة بموافقـة مسبقة من الاستاذ كمال مظهر.

مقدمة :

منذ انهيار النظام تلقيت، مثل العديد من زملائي ،دعوات كثيرة للاشتراك في مؤتمرات وندوات خارج العراق ، لم اشترك، مع ذلك ، في اي منها بسبب وضعي الصحي حال. ولكن عندما طلب مني الأخ الدكتور بختيارأمين مشكورا ان اشترك في هذا المؤتمر العلمي جذبني الموضوع، كما مكان انعقاد المؤتمر، وعندما كلفني بأعداد ورقة حاولت عبثا اعفائي من ذلك لسبب بسيط هو عدم المامي بخفايا وتفصيلات مادارعلى

صعيد المؤسسات الرسمية ولاسيما داخل أروقة الجمعية الوطنية، بصدد الدستور عموما والفيدرالية خصوصا، فماذا كان بوسعي أن أقدم من جديد امام اناس يحفظ غير واحد منهم نصوص مواد الدستور عن ظهر قلب .لذا أثرت أن أختار موضوعا ربما يكون بوسعي أن اقدم من خلاله شيئا جديدا، او مفيدا لغير العراقيين المشتركين في المؤتمر ممن كنت أتوقع أن يكون عددهم أضعاف عددنا كما يحدث ذلك في المؤتمرات الاخرى ،وكان في ذهني تقليد فلورانس المدينة الرائعة الإيطالية في عصر النهضة الذين كانوا يغلقون أبواب محلاتهم ومتاجرهم في عز النهار ليذهبوا أفواجا الى المكان الذي يلقي فيه خطيب مبدع كلمة أو شاعر فذ قصيدة وعلى هذا الأساس اخترت موضوعاً

من هذا النمط واسميه (موقف العراقيين من النظام الفيدرالي مسح تاريخي فكري عام) عسى ان أستطيع ان أقدم شيئاً مفيداً أو جديداً على أسماع السادة الأجانب فى هذه القاعة فعندما وجدت الحالة هكذا وربما لطبيعة المؤتمر حاولت للحظة الأخيرة عبثاً ان يعفيني الدكتور بختيار من إلقاء كلمتى ولكن عبثاً. مع ذلك فإننى سعيد لأن بيننا البروفيسور دافيد كاميرون الكندي والبروفسور كلارك لومباردي الأمريكي. فلقد سمعنا منهما شيئاً كثيراً مما هو جديد ومفيد، وحتما نفتقد جميعا صاحب الدار البروفيسور فاليريو أونيدا الذي اثرانا بدوره بآراء قيمة.

كما قلت عنوان محاضرتي هو (موقف العراقيين من النظام الفيدرالي.. مسح تاريخي

فكري عام). على غير عادتي سوف أحاول ان اقرأ الورقة لأن الورقة موثقة وفيها (١١) هامشاً توثيقياً وتوضيحياً أتحدث على لسان العديد من المنتمين إلى النخبة العراقية فأقول:

لـيس مـن السـهل اختيـار موضـوع لتقديمـه إلى مـؤتمر عـالمي مـن قبيـل مـؤتمركم. أحـاول قـدر المستطاع تركيز أفكاري.

المعلومـات المتـوفرة حـول موضـوع ورقـتي هـذه متواضعة، فلم أجد شخصياً في الإصـدارات العراقيـة المتنوعـة طـوال العهـد الملكـي وفي جميـع العهـود الجمهورية توصيفاً محـدداً للفدراليـة في اطـار بحـث تاريخي أو سياسي مستقل.

ظهـرت في اصـدارات القـوى اليسـارية العراقيـة والقومية الكرديـة السياسـية إشـارات عامـة إلى هـذا الموضوع عندما طرحت على ساحة المشـرق العربـي شعارات الوحـدة مـع مصـر في عهـد المرحـوم جمـال عبد الناصر، الموضوع الـذي توزعـت مواقـف القـوى السياسـية العراقيـة إزاءه علـى جنـاحين، يطالـب

احدهما بالوحدة الاندماجية الفورية، فيما يطالـب الثـاني بالاتحـاد الفيـدرالي المتـأني، وفي الحـالتين لم تغب المشاعر العاطفية المثالية عـن الميـدان بوصـفها عاملاً محركاً أساسياً للتمسك بأحـد الشعارين، ممـا تجسـد بقـوة في صـفوف الطلبـة الجـامعيين الـذين كـانوا يؤلفـون حينئـذ أهـم نـواة فاعلـة ومـؤثرة للنخبـة العراقيـة الواعيـة. وإذا اسـتثنينا كليـة الحقوق فإن المحاضرات الجامعية خلت يومها من أي إشارة ولو عابرة إلى هذا الموضوع الحساس مع العلـم ان نضال العرب ضد التوجهات الشوفينية الصارخة للاتحـاديين أواخـر العهـد العثمـاني كـان ولم يـزل يشغل حيزا كـبيراً في المحاضـرات تلـك، ومـاورد مـن معلومـات في المؤلفـات المتداولـة داخـل أروقـة كليـة الحقوق كانت بالأساس مصرية المنشأ لرجال قـانون معـروفين مـن أمثـال عبـد الـرزاق السـنهوري والـدكتور مصـطفى كامـل ومـن بعـدهما الـدكتور

ثـروت بـدوي[1]، وظـل الموضـوع راكـدا في ثنايـا صفحاتها دون ان ينعكس، ولو جزئياً، في النشاط السياسـي للنخبـة القانونيـة الـتي كانـت تحتـل يومذاك موقعاً قيادياً متميـزا في الحركة الوطنيـة العراقية[2].

ماسـبق ذكـره لا يتوافـق في كـل الأحـوال مـع المـوروث الحضـاري العربـي المعـروف الـذي ينطـوي، كما يؤكـد ذلـك المتخصصـون في الموضـوع ،على أولى أشكال الكونفيدرالية تاريخياً، مما تجسد قبـل اكثـر من ١٥٠٠ عام في الدولة الكونفيدرالية الـتي تأسست وسـط نجـد بقيـادة قبيلـة كنـده القحطانيـة الـتي منحت" الحرية لكل قبيلة في إدارة نفسها" علـى ان تكون "بالنهاية مرتبطة بالسلطة العليا"[2]. وهـذا يتطـابق إلى حـد كـبير مـع حـال العشـائر الحدوديـة التي كانت تدافع عن تخوم الإمبراطورية الرومانيـة وتحميهـا مـن المتربصـين بهـا قبـل أكثـر مـن الفـي

سنة، فأطلق عليها اسم foedus الكلمة اللاتينية القديمة التي تعني الاتحاد نصاً، وقـد اقتـبس منهـا لاحقاً مصطلح الفيدرالية.

تتظافر مجموعة كـبيرة مـن العوامـل في تحريـك قطـاع واسـع مـن الـرأي العـام العربـي العراقـي ضـد الفيدراليـة، تـتراوح بـين التحريـك الخـارجي، كمـا الداخلي الذي يتركز على دغدغة العواطف الدينيـة والقومية التي بلغت حـد رفـع شـعار غريـب حسـب جميع المقـاييس في شـوارع العديـد مـن المـدن يقـول نصـه "الفيدراليـة عـدوة الله"، ياللمهزلـة، وأخـر يؤكـد ان الفيدراليـة تفضـي في نهايـة المطـاف إلى تفتيت وحدة البلاد والعباد، ممـا يتنـاقض مـع كـل تجارب التاريخ الناجحة في هذا المضمار الحيوي، بما في ذلك التوجه اللامركزي للحكـم في إطـار ديـني في عز أيام ازدهار الدولـة العربيـة الإسـلامية، لتنقلـب الآية رأساً على عقب في أيـام انحلالهـا عنـدما حلـت

مركزية نهابة مقيتة مكان اللامركزية العقلانية السابقة لتسقط الدولة تلك كأوراق الشجر ١٢٥٨ على يد أكثر قبائل في آسيا الوسطى تخلفاً يومذاك،الأمر الذي لم يكن شخص هولاكو يتوقع ان يحدث هكذا بسهولة ويسر.

تتكرر التجربة المرة نفسها في ظل الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، فان نظامها على ارض الواقع كان في أوج قوته أشبه ما يكون بنظام فيدرالي،بل وحتى كونفيدرالي غير معلن، فان السلاطين الأوائل لم يتدخلوا قطعاً في شؤون الإمارات التركية التي ظلت مستقلة، لا تؤدي تجاه الباب العالي سوى ما عليها من التزامات مالية وعسكرية دون ضغط أو إكراه، ودون أي تدخل مباشر أو حتى غير مباشر في شؤون حياة أهلها الخاصة والعامة، في تقاليدهم ولغاتهم، أو ارض أجدادهم، لذلك لم يفكر أحد يومذاك بالانفصال،

حتى ان الأرمن كانوا يؤلفون عنصر بناء لا هدم رغم انتمائهم الديني المسيحي وموروثهم الحضاري المتميز. وهذا يعني ان التنوع الأثني والديني والمذهبي تحول إلى مصدر خير، وعامل ازدهار بمقياسي الزمان والمكان ،وما ان انقلبت الآية في زمن السلاطين المتأخرين، وخصوصاً في عهد الاتحاديين، حتى تحولت القوميات غير التركية، وشجونها الكثيرة إلى عبئ ثقيل على كاهل الدولة،والى عامل فاعل في نخر أسسها، وتحويلها إلى "الرجل المريض" الذي تخبط في اختيار الدواء فأدركه الموت غير متأسف عليه.

ومهما يكن من أمر فقد تمكنت هذه التوجهات والتيارات من تحريك قطاع واسع للغاية من الرأي العام العربي العراقي ضد الفيدرالية التي شوهت صورتها إلى حد كبير، خصوصاً في نظر البسطاء من الناس الذين يفكرون بآذانهم لا بعقولهم في مثل

هذه الظروف كما قال المرحوم الشيخ أحمد الوائلي في وصف موقف منه لحالة مشابهه نجمت عن دعايات مغرضة لم تبقي فسحة كبيرة أمام الفكر المنطقي السليم ليؤدي دوره الايجابي.

لم يتمكن الطرف المقابل من المعادلة ،أي مؤيدو الفيدرالية، من عرض بضاعتهم بالمستوى المطلوب لأكثر من سبب ، بما في ذلك تحجيم الوسط الديمقراطي واليسار العراقي العلماني اللذين كاد ان يختنق صوتاهما نتيجة ما عانياه على مدى نيف وثلاث عقود من ضغط قل نظيره في التاريخ. فلا غرابة ان لا تجد اليوم حتى بين النخبة العراقية التي تميزت على صعيد المنطقة في الماضي القريب بتعطشها لمعرفة كل ما هو مفيد ونادر، سوى نفر قليل يعرفون عن كثب ظواهر الفيدرالية وتطوراتها، وبأن جميع من آمنوا بها، وناضلوا

من أجلها ينتمون إلى خندق الوطنية الحقة، والى المظلومين تحديداً ،منهم ،على سبيل المثال، الفيدراليون الفرنسيون الذين كانوا ينتمون إلى المقاطعات والأطراف من علقوا آمالاً كبيرة على شعارات الثورة الفرنسية الكبرى عن الحرية والإخاء والمساواة فتطوعوا للدفاع عن مكاسب الثورة التي تكالبت عليها القوى الرجعية في الداخل، كما في الخارج، فتوجهوا من كل حدب وصوب إلى العاصمة باريس وهم يحملون إيماناً عميقاً وسلاحاً بسيطاً حيث ابدوا آيات البطولة في ميادين القتال، خصوصاً ضد القوى الخارجية التي كانت ترنوا إلى وأد الثورة في مهدها، وبأن هؤلاء الفيدراليين هم أول من انشدوا نشيد الثورة الفرنسية المعروف المارسيليز. وعلى الغرار نفسه لم يؤد فيدراليو هذا البلد المضياف (إيطاليا) دوراً أقل شأنا في الحركة الوطنية العامة في مطلع العقد الثالث من

القرن التاسع عشر، مما ساعد على تمهيد الطريق لاحقاً لتحقيق الوحدة الإيطالية المنشودة.

ومن المفيد ان أشير هنا إلى ان معظم "منظري" الآراء المعادية للفيدرالية في العراق، ان لم يكن كلهم ،لا يصيغون أفكارهم بلغة عربية سليمة شكلاً ومضموناً، بل يصيغونها باسلوب مفكك، منفعل ابعد مايكون عما عرف عن العربية من السلاسة التي قل نظيرها في دنيا اليوم ،كما الأمس، وهم في الأغلب الأعم انتقائيون، غير موضوعيين في عرض حججهم التي تعيش أزمة حقيقية، وتراجعاً واضحاً، الأمر الذي يحس به المتتبع دون عناء. ومما يلفت النظر ان عدداً غير قليل من القوميين العرب، بضمنهم بعثيين عرفوا بمواقفهم الانتقادية للنظام السابق، يؤيدون الفيدرالية علانية، منهم الصحفي والكاتب المعروف مؤيد عبد القادر[٤] الذي عبر مراراً عن إيمانه

المطلق بحق الكرد في تقرير مصيرهم بأنفسهم، بما في ذلك تأسيس دولتهم كما ورد نصاً في الرسالة التي بعثت بها قبل أيام إلى شخص رئيس إقليم كردستان السيد مسعود البرزاني.

وللتوضيح أكثر أشير إلى نموذجي آخرين من التيار نفسه كلاهما أستاذين جامعيين الأول هو الدكتورعادل تقي البلداوي[٥] الذي نشر في جريدة الزمان اللندنية الواسعة الانتشار مقالة في يوم نوروز العيد القومي الكوردي بعنوان (الأخوة العربية الكردية مصير مشترك) قال فيها نصاً: إذا كان العرب مؤمنين حقاً بما قاله الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أحب أخيك كما تحب نفسك، فعليهم ان يناضلوا من أجل تحقيق وحدة الكرد في جميع أنحاء العالم وان يضحوا بدمائهم من أجل ذلك حتى يرفع الكرد علمهم إلى جانب علم العرب والدول الإسلامية الاخرى[٦]. والثاني هو

د.عـلاء جاسـم الحربـي المعـروف بنشـاطه الجـم وكتاباته الكثيرة الطافحة بمشاعر عروبيـة لا تخلو في حالات كثيرة عن تزمت مرفوض في نظر صاحب هذه الأسطر الـذي طالمـا صارحه بـذلك، الا انـه،مع ذلك، أكد غير مرة ان للكـرد خصوصـيتهم بالنسـبة لموضـوع الفيـدراليـة، ذلـك "لان الغـرب، وبخاصـة بريطانيا، حرمهم من تكوين دولة مستقلة شـأنهم شأن بقيـة القوميـات الـتي كانـت جـزءاً مـن الدولـة العثمانية"[٧].

لا مـراء في ان الوجـه الايجـابي المرمـوق لهـذه الطروحـات يعـبر عـن نفسـه أكثـر فـأكثر عنـد مقارنتـه بمواقـف بعـض المسـؤولين الجـدد، وتصريحاتهم المؤسفة بخصوص الفيدرالية وأطياف المجتمع العراقي غير العربية التي تبـدي، مـع ذلـك، تمسكها بالوحدة الوطنيـة رغـم كل مـا عانتـه مـن اضطهاد مقيت على مدى عشرات السنين الماضية.

والسؤال الأخير الذي يفرض نفسه فرضاً يخص المستقبل، والجواب المقنع هو ان عجلة التـاريخ قـد تتعثر، الا انها لا يمكن ان تقف عن السير قدماً نحـو غـد أفضـل يبنيـه المخلصـون مـن العـراقيين الـذين يمثلون نخبتهم الواعية بان الفيدراليـة لاتبتغي، في المحصـلة النهائيـة، سـوى "الوحـدة والشـراكة في الوطن" ضمن "حقوق متساوية يحددها الدستور"، كمـا أكـد ذلـك الـدكتور حكمـت شـبر عميـد كليـة الاسلامية الجامعة في مؤتمر فدرالية الوسط "الـذي عقد في النجف الاشـرف في نيسـان العـام الجـاري(٨)، سبقه مؤتمر أوسع عـن الفيدراليـة وفوائـدها علـى شـتى الصعد الاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسـية عقـده "مركـز مـا بـين النهـرين للتوعيـة الديمقراطيـة" يـومي ١٢و٢٠٠٤/٦/١٣ تحـت شـعار (نحو دور فعال للقانونيين العراقيين في بنـاء العـراق الـديمقراطي الجديـد)[٩]. يحتـل في المقـام نفسـه مـا

أبدعه القاضي زهير كاظم عبود والاستاذ الجامعي د.كاظم حبيب والمحامي والباحث القانوني طالب طاهر التكمه جي والصحفي والكتاب المتميز حميد المطبعي وغيرهم[١٠] مكانة مرموقة، يشغل مجلداً ضخماً في حال جمعه، مما يؤلف تراثاً فكرياً جديراً بشعب قدم للتاريخ البشري اجل الخدمات، خصوصاً وانه يؤكد "على ضرورة خروج السلطة من جمود الأديولوجية بجانبها القومي والديني في سياق عملية ديمقراطية لا ريب في ضرورتها وأهميتها"[١١] لعراق اليوم والمستقبل.

جزيل الشكر لحسن استماعكم ،اعتذر ان أطلت.

الهوامش

١. ينظر على سبيل المثال: الدكتور مصطفى كامل، شرح القانون الدستوري، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، ١٩٥٢، الص٢٨-٣٦ وغيرها، ثروت بدوي، النظم السياسية، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤، الص ٦٧-٦٨ وغيرها.

٢. حول جذور الموضوع يمكن الرجوع إلى: عبد الحسين إبراهيم الرفيعي، النخبة القانونية ودورها الفكري والسياسي في العراق ١٩٠٨-١٩٣٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية- ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٣، أعدت الرسالة بإشراف الباحث.

٣. الدكتور جواد مطر الموسوي، العراقيون أول من كتب دستوراً في العام، "المدى" (جريدة)، العددان ٤٤٠و ٤٤٥ ، ١٨و٢٤ تموز ٢٠٠٥، اختصاص صاحب الدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام، كما يشغل حالياً منصب معاون عميد كلية الآداب- جامعة بغداد للشؤون العلمية.

٤.من أهم مؤلفاته السلسلة الموسوعية "هؤلاء في مرايا هؤلاء" التي كرسها لإبراز أعلام العراق المعاصرين بغض النظر عن انتماءاتهم الفكرية، بسبب بعض مواقفه الانتقادية لم يسمح له بأن يتبوأ موقع متميز في ظل النظام السابق رغم امكاناته المعروفة.

٥. أصغر أستاذ جامعي في العراق يحمل لقب الأستاذ (بورفيسور)، فهو من مواليد بغداد سنة ١٩٦٢، صاحب عدد كبير من المؤلفات الوثائقية عن "الحزب الوطني الديمقراطي" بزعامة كامل

الجادرجي، وعن الزعيم الكردي مصطفى البارزاني وموضوعات أخرى من النمط نفسه، يعمل حالياً أستاذاً لمادة التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة المستنصرية.

٦. "الزمان" (الجريدة)، لندن، العدد ١١٨٧، ٢٢ آذار ٢٠٠٥.

٧. "الوطن" (جريدة)، بغداد، ١٥ أيلول ٢٠٠٥، مقابلة مع الدكتور علاء جاسم الحربي أجرته معه فضائية الحرية للاتحاد الوطني الكردستاني، محضر مناقشة أطروحة طالب الدكتوراه محمد يوسف القريشي عن ونستون تشرشل، كلية الآداب - جامعة بغداد، ٢٠٠٥.

٨. ورد ذلك ضمن بحث مطول وموثوق بعنوان "الدستور وفيدرالية إقليم الوسط"، أبعد صاحب البحث، وهو قانوني علماني معروف، عن الوسط الجامعي في ظل النظام السابق، كما عانى أفراد

أسرته الكثير في ذلك العهد، ومن المفيد ان نشير بالمناسبة إلى ان برزان إبراهيم التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام حسين، اختاره، دون علمه، للدفاع عنه أمام المحكمة لما توسم فيه من جرأة وكفاءة وموضوعية عندما تتلمذ على يده في كلية القانون.

٩. "التآخي" (جريدة)، بغداد، العدد ٤٣٣١، ٢٠ تشرين الأول ٢٠٠٤.

١٠. نشروا نتاجاتهم في "المدى" وهي أفضل صحيفة ناطقة بلسان النخبة العلمانية العراقية و" الاتحاد" (لسان حال حزب الإتحاد الوطني الكردستاني)، و"التآخي" (لسان حال حزب الديمقراطي الكردستاني)، و"الأهالي" (لسان حال الحزب الوطني الديمقراطي) و"طريق الشعب" (لسان حال الحزب الشيوعي العراقي)، ومجلة

"الثقافة الجديدة" وغيرها، فضلاً عن مواقع عدة على الإنترنيت.

١١. مقتبس في خاتمة "بنية المجتمع العراقي. دراسة تاريخية اجتماعية سياسية لظاهرة التنوع. العهد الجمهوري الأول ١٩٥٨-١٩٦٣ أنموذجاً"، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة المستنصرية، ٢٠٠٥، أعدها ياسين سعد محمد بإشراف الباحث.